ما بعـــد الطبيعـــة

NETAPHYSIQUE

الروح L, âme

للسيد محمد حسن البقاعي

— ٣ —

لقد بحثنا في الفصلين السابقين عن المادة والحياة ، وأتينا على ذكر النظريات والنتائج التي وصل إليها الفلاسفة على اختلاف آرائهم ، وتعدد مذاهبهم . ولا يسعنا الآن إلا أن نقول : إن نتائج تلك الأبحاث والبراهين والاعتراضات التي أثارها الفلاسفة للوصول إلى كنه المادة وحقيقة الحياة ، لم توصل العقل البشري إلى نتيجة حاسمة ، بل لا تزال الصعوبات قائمة . ولكننا نظن ، أن الله سبحانه وتعالى سوف لا يعدم البشرية من نور مفاجيء يرسله إلى عقل بعض الفلاسفة الجادّين في الوصول إلى الحقيقة النيرة في هذه الأبحاث ؛ فيكشف اللثام عن تلك المسائل التي لم تتعدَّ حيز الفرض والاعتراض ، ويأخذ بيد العقل البشري إلى شاطيء السلامة ، فيخرجه من الظلمات إلى النور . وها نحن مقدمون على البحث في الروح فنقول :

إن البحث في الروح لم يكن نصيبه أكثر من نصيب البحث في الحياة ؛ فخلاصته ما شغل عقول الفلاسفة من معرفة حقيقة الروح وماهيتها هو إقرارهم — إقراراً ضمنياً — بعجز العقل البشري عن سبر غورها ، وقرع باب حقيقتها . فإن الروح هي من أمر الله ، فكيف يتأتى لعقل قاصر إدراك ماهية أمر الله تعالى — وهو لم يستطع إدراك الأشياء البسيطة بالنسبة إلى الروح مثل المادة والحياة

وسنأتي الآن على ذكر النظريات التي وضعها العلماء والفلاسفة الذين عالجوا البحث في الروح وطمحوا في الوصول إلى حل نهائي معقول ؛ ولكنهم — ويا للأسف — لم يصيبوا غرضهم المقصود . فالبحث في الروح إما أن يكون عن طريق الرأي العام والحس السليم الذي يقرر أن الروح والجسد مختلفان في طبيعتهما : ويضع الروح فوق الجسد أي إنه يقرر : أن الحياة النفسية فوق الحياة الجسدية ، ويعتبر الروح مبدءاً معنوياً يدير الجسد .

وإما عن طريق آراء الفلاسفة والباحثين التي يمكن تقسيمها مبدئياً إلى قسمين :

١ — نظرية الماديين Le matèrialisme

٢ — نظرية الروحيين Le spiritualisme

أما الماديون فيقولون : (لايجوز أن نقبل أن الروح والجسد مختلفان بطبيعتهما ، أي لا يمكننا القول بأنهما عنصران بل عنصر واحد) فهي إذن نظرية توحيد لا نظرية ثنية[1] وهي تجعل النفس خاضعة للعناصر المادية التي في الجسد . وهم يستندون على طائفة من الأدلة التي يمكن أن تعتبر فيزيولوجية وهي :

١ — إن ما توصل إليه الفلاسفة من تعيين مناطق الكلمات والرؤية والنطق في الدماغ يثبت لنا أن كثيراً من الأمراض العصبية تولد بذاتها اختلافات نفسية واختلافات فكرية .

٢ — إن الدورة الدموية في الدماغ تزداد أثناء التفكير . وقد ذكر الدكتور جميل صليبا[2] أن العالم الايطالي (موسو) شاهد أدمغة أشخاص أصيبوا بمرض في الجمجمة فرأى من وراء القحف أن العمل الذهني والاضطراب النفسي والأحلام كل ذلك يبعث على إزدياد ضغط الدم في الدماغ ؛ حتى لقد فكر في إثبات ذلك بتجربة محسوسة فصنع ميزاناً كبيراً على صورة منضدة يمكن أن ينام عليها الشخص ؛ فكلما أجهد الشخص النائم فكره رجحت جهة الرأس من الميزان لانصباب

(١) نظرية الثنية : هي القائلة بأن الروح من طبيعة تختلف عن طبيعة الجسد وأهم واضعيها هو (ليبنيز)

(٢) كتاب علم النفس للدكتور جميل صليبا صفحة (٧١)

الدم عليها . فيستنتج من ذلك أن الحياة الجسدية هى المؤثر الأول على الحياه النفسية

٣ — نرى فى علم التشريح أن ارتقاء الجملة العصبية متناسب مع ارتقاء الحوادث النفسية . فكلما تكاملت الجملة العصبية تكاملت الحوادث النفسية ؛ فالأفاعيل الفيزيولوجية إذن ترافق الأفاعيل النفسية

٤ — إن التأثير الحاصل من الجسد فى النفس كتأثير الصحة والمرض والكبر فى النفس برهن على اتحاد الجسد والنفس فى الماهية

٥ — لقد بَيَّنتْ مباحث علماء (البسيكوفيز يولوجيا) — بالرغم من كونها ابتدائية أولية — أن هناك قوانين تربط الحوادث النفسية بالحوادث المادية ، فيقول (فيخنر) : إن النفس من محصول الجسد ، ولكن الشعور فى هذه النظرية ليس إلا عرضاً زائلاً كالنور وتأثيره فى حركة القطار ... فلو عرفنا أحوال (لوثر Luther) الفيزيولوجية فهل نستطيع أن نكتشف الأسباب التى دفعته للقيام على البابا ؟ الجواب على هذا السؤال بحسب هذه النظرية التى ليست إلا نظرية الشعور الملحق (Epiphènonèmisme) هو بلا شك (كلمة نعم !) . أما القول في مناقشة هذه النظرية فيتلخص فى أربع فقرات :

١ — نستطيع أن نقول عن هذه النظرية إنها لا تزال فى عالم الخيال ؛ فقد أخطأت باعتبارها أن الشروط الضرورية فى الفكر هي المادة

٢ — إذا أنعمنا النظر فى هذه النظرية وجدناها لا توضح الشعور بل تعتبره حادثة زائدة لا أثر لها فى الحوادث النفسية ؛ على أننا لا ننكر اتصال الجسد بالروح ؛ ولكن هؤلاء الماديين تجاوزوا هذه الحدود ، فهم يعتبرون الأموز النفسية ناشئة عن الجسد بينما نجد بينهما موازاة فقط ؛ ويقررون أن الشعور ناشىء عن الحركة ، مع أن بينهما فرجة فى الحقيقة . ولو سَلَّمنا أن الشعور حادثة عرضية فكيف يمكن إيضاح ارتقائه على مَرِّ العصور وتكامله تكاملاً تدريجياً ؟ ألم يقرر الفيزيولوجيون أن العضو الذى لا فائدة منه يزول فى التطور ؟ فكيف بنا ونحن نراه يرتقى ويتكامل عوضاً عن أن يضمحل ويتلاشى ! إذن لا بد أن يكون حادثة من حوادث النفس لا ... بل هو ذلك الحدْسُ النفسى الذى نطلع به على حوادثنا النفسية

٣ — إنهم ينكرون تأثير الحوادث الروحية (النفسية) ولا ينكرون العكس مع أننا نعلم أن للفكر والعاطفة وغيرهما من الحياة الانفعالية تأثيراً بيناً فى الجسد . وقد وضع الفيلسوف (ويليام جمس W: James نظرية يدعم بها رأى القائلين بتأثير النفس فى الجسد فقال : (لا يمكن أن نقبل أن الجسد يؤثر فى النفس ونترك تأثير النفس في الأخير) لأننا نرى أن الشخص عند ما يبكى لا يكون بكاؤه فجأة بل لا بد من أن يحزن أولاً ثم يبكى ؛ إذن لا يمكن للمرء إهمال الفكرة . وكثيراً ما استغرق الانسان فى فكر من الأفكار ، فأنساه استغراقه هذا ألماً من آلامه المادية . فالرغائب والأهواء تلعب دوراً هاماً فى الجسد وتسبب حركته ، وهذا كله كاف لدحض حجة الماديين التى يمكن أن تعتبر حجة بتراء

٤ — إننا نرى أن الحاضر مثقل بالماضى ، وهو يهيئ للمستقبل فتتجمع آثار الماضى فى الحاضر . إذن فالحاضر والماضى متصلان ؛ واتصالهما هذا يؤول إلى القول بأن كل حالة من أحوال النفس تحوى كل حالات النفس ؛ فالكل موجود فى الجزء ، والجزء موجود فى الكل ؛ ولكن الحقيقة أن الكل موجود فى الكل . وكل هذا مخالف لاعتقاد الماديين بل يستحيل عليهم قبوله ؛ فلا يستطيع الماديون إذن أن يوضحوا أمراً هاماً جداً وهو الحكم والمحاكمة ؛ ولا اتفاق الناس وتبادلهم بالأفكار ؛ بل يقولون إن تبادلهم فى الأفكار إنما يكون باتفاقهم فى الحوادث الفيزيولوجية ؛ فليست هذه النظرية إلا ضرباً من الخيال فهى نظرية ميتافيزيكية أكثر مما هى عقلية

أما اللاماديون أى الروحيون الذين عارضوا نظريات الماديين فقد قالوا : يجب أن نقبل وجود شيئين مستقلَّيْن عن بعضهما بطبيعتهما ، أى هما مختلفان بمادتهما . وأول مدافع بل أول واضع لهذه النظرية هو أفلاطون الذى يقول : « إن النفس هي أخت المثل العليا الخالدة ، وهى خالدة مثلها ؛ فالنفس إذن محبوسة فى الجسد كأنها فى حجرة من حجرات هذا الجسد ؛ أى إن النفس كالرُّبان فى السفينة يُسيِّرها ولا يتأثر بما تتأثر به هذه السفينة . وعلى ذلك فالموت هو رجوع النفس إلى أخواتها حيث تسترجع علمها الأبدى الذى نسيته فى الجسد » . أما (ديكارت) فهو يعتبر أيضاً أن النفس والجسد من طبيعتين مختلفتين ؛ فماهية النفس هى الفكر ، وماهية الجسد هى الامتداد ؛ فهما إذن غير متجانسين ولا متشاكلين ، بل لكل منهما طبيعة خاصة به . إلا أنه ينكر على أفلاطون قوله بعدم اتصالها ببعضهما

وتشبيه النفس بربان السفينة الذى لا يتأثر بما تتأثر به السفينة فيقول : « إننى لا أنكر أن لى جسداً يتألم عند ما أشعر بألم ؛ وأحس بالجوع والعطش عنـد ما يكون بحاجة إلى الأكل والشرب ؛ وإننى لست ساكناً بجسدى كما يسكن الرُّبان فى السفينة بل أنا أكثر من ذلك ؛ أنا متصل بجسدى أكثر من اتحاد الربان فى السفينة ، ولو كنتُ مثله لكنت إذا جُرحت لم أتألم ، بل على الأقل كنت أرى جرحاً فقط دون أن أشعر بألم ، فأنا إذن عبارة عن شخص مفكر »

فديكارت إذن يقول بتأثير الجسد فى النفس ويقول : « إن الحركة لا تتغير » أى لا تزيد كمية الحركة فى العالم . وهو يصرح بقبوله لفكرة العلاقة بين الجسد والنفس ، ولكنه يوضح هذه العلاقة بقوله : « إن كلا من — الروح والجسد يؤثر فى الآخر بمعونة الإلٰه » . ولقد اعتبر بعض الفلاسفة أن هذا الإيضاح مبهم وقالوا : إن إيضاح تلاميذ (ديكارت) أتم وأوسع من إيضاح (ديكارت) نفسه . فتلميذه (ماليبرانش) الذى وضع نظرية الأسباب المصادفة — أى العلل الاتفاقية — يقبل كل أقوال أستاذه ويشعر بالصعوبة فى اتحاد الجسد فى النفس وكيفيته وأسبابه ؛ ولكنه يحل ذلك بشرح مبتكر ، فيقول : « إننى أرى أن الروح لا تؤثر فى الجسد والجسد لا يؤثر فيها ، فمن الذى يؤثر إذن ... ؟ لا شك أن الإلٰه وحده هو الذى يؤثر . مثال ذلك : عند ما تحترق يدى فلا تستطيع نفسى أن تحدث فىَّ الألم بل الإلٰه هو وحده الذى يحدث فىَّ الألم » . فمن ذلك ترى أن (ديكارت) و (ماليبرانش) قد فتحا فى حل مسألة الروح فتحاً جديداً ؛ فهما بتعليلهما هذا يقرّان بالعجز عن إدراك حقيقة اتحاد الروح بالجسد . وليس هـذا إلا رضوخاً للحق واعترافاً بالواقع ؛ فيجب عدم الاكتراث باعتراضات بعض الفلاسفة المتعنتين أو الملحدين على الأصح ، فهـم يقولون : « يؤخذ على ديكارت إسناده كل فعل إلى الإلٰه ، وتوقفـه على إرادته ومعونته ؛ فبذلك يحذف كل فاعلية للجوهر اللامتناهى ، ويجعل الإلٰه كعامل من العمال غير كامل لأنه صنع آلة لا تمشى إلا إذا كان هو موجوداً فيها »

فمناقشة هذا الاعتراض تتلخص بقولنا : ليس هذا الاعتراض إلا كلمة حق أُريدَ بها باطل . ولنفرض أن للجوهر فاعلية ، فمن أوجد هذه الفاعلية ؟ ومن أوجد الجوهر ؟ ومن هو مرتّب ومنسق هذا النظام في عالم الكون والفساد ... ؟ هل يستطيع هؤلاء المعارضون المنكرون للقوة الإلٰهية أن يجيبوا على هـذه الأسئلة بأن المؤثر والفاعل الأول لذلك هو غير الله عز وجل ؟ هبهم أجابوا بذلك وقالوا : إن الطبيعة هى الفاعلة ، فما هى هذه الطبيعة ومِمَّ تتركب ؟ وما هو مبلغ قوتها واقتدارها ؟ . لا شك أنهم يقفون حيارى تجاه هذا الأمر ولا يسعهم إلا الرجوع إلى القدرة الإلٰهية ...

ولقد وضع (سپينوزا Spinoza) نظرية جعل فيها الامتداد والفكر جوهراً واحداً وقال إنه جوهر الإلٰه ؛ بل قال إن كل الجواهر كالروح والجسد هى أعراضٌ لجوهر الإلٰه . فهذه النظرية تسمى بالنظرية الحلولية Le panthèisme ؛ فهو ينتقل من مذهب التثنية إلى مذهبٍ حلولىٍ واحدٍ مُوَحدٍ لجميع الجواهر . وخلاصة هذا المذهب هى : لا يوجد غير الإلٰه ؛ وكل ما نراه هو أعراضٌ وصفاتٌ له ؛ فالجواهر إذن هى لا نهاية في لا نهاية ؛ ولكننا لا نعرف منها إلا صفتين فقط وهما : الامتداد والفكر لننظر إلى العالم المحسوس فنرى لوناً وصوتاً وحركة ، وكل هذه هى عبارة عن أحوالٍ وهى متناهية ، إلا أن عددها غير متناهٍ ، فالفكر صفة الإلٰه وأحواله غير المتناهية كالرغائب والتذكريات ... فأحوال الامتداد الإلٰهى هى الأجسام ؛ وأحوال الفكر الإلٰهى هي النفوس وعلى ذلك فالعالم والالٰه شىء واحد . ويقسم هذا المذهب الطبيعة إلى قسمين :

١ — الطبيعة الطابعة La nature naturante

٢ — الطبيعة المطبوعة La nature naturée

فالطبيعة الطابعة هى مجموع العلل الثابتة الدائمة الموجودة فى جوهر الالٰه ؛ والمطبوعة هى مجموع الأعراض المتغيرة المتبدلة التى لا تستقر على حال . فبحسب هـذه النظرية يكون الانسان مركباً من مجموع نوعين من الأحوال الالٰهية ؛ وهما الفكر والجسد ولا يمكن أن يعتبر جوهراً ؛ وعلى ذلك فلا يوجد عقل ولا إرادة بل إرادات ، فمجموع الأحوال النفسية يوازيها مجموع الأحوال الجسدية ، فهى تشبه نظرية الموازاة Le parallèlisme فهذه النظرية لا تقبل تأثير النفس فى الجسد ولا العكس بل تقول إن بينهما موازاة فقط ؛ وهى تنكر الحرية ؛ واعتراضنا عليها